علامة الهدى
عمار بن ياسر

السيد صدر الدين شرف الدين

قد تعجب لكهل انصرف من عقدة الرابع أو كاد، يسلط عليه من حز الحديد، ومن لفح النار، ومن ضغط الماء، وعذاب نكر، فلا يستخذى للعذاب، ولا يحفل به، ولا يباليه، بل يقبل عليه مرة بعد مرة في مرات كثيرة، مطمئناً له، راضياً به، لكأن أطراف الأسنة وألسنة النار، وضغط الماء أشياء من دغدغات حبيب تثير الرضا لا السخط، وتدعو إلى الاغتباط لا إلى الحزن، وتحي الرجاء لا اليأس.

وقد تعجب لشيخ ينصرف من عقده العاشر أو يكاد، يسلط هو على عدوه من سيفه ناراً تشبهها النار، ومن عزمه حديداً أصلب من الحديد، ومن اندفاعه سيلا أعنف من السيل.

وقد يبطل عجبك من هذا وذاك، حين تعلم أن هذا الشيخ الفتي المستطيل، إنما هو ذلك الكهل الشاب المضطهد نفسه، وأن هذا الإنسان الراسخ في حاليه، لم يستقبل الفتنة المنكرة كهلا، ولم ينزل فيها للعذاب الشديد الغليظ عن بدنه، إلا من أجل عقيدة كانت ما تزال طرية الغرس في نفسه، وأنه لم يمتشق في شيخوخته سيفه العاصف المتأجج المرهوب المحبوب إلا من تلك العقيدة، وقد توطنت في نفسه وامتدت واستمكنت، فإذا هي روحه الذي يتنفس ودمه الذي يجري. وماذا تنتظر من شيخ تُتَيِّم كهولته عقيدة نيرة، وتصبره على العذاب الشديد الغليظ فيها. وهي طرية الغرس لما تنتشر عروقها في أنسجته وشرايينه، غير أن تنتضيه ذلك السيف العاصف. وقد هبطت جذورها إلى أخمصه واشتبكت خيوطها في مشاشه، وفشت منه في كل غدة، وفي كل حجيرة، حتى استحال دمه كله إيمانا وإخلاصا، وحقاً من الحق الصريح.

لم يكن الكهل الشاب يتلقى حز الحديد، ولفح النار، وضغط الماه، بلحمه ودمه، وإنما كان يتلقاه بعقيدته وإيمانه، فإذا لقى جلده: هذا الثوب، من العذاب الشديد الغليظ أذى وتبريحا، فقد كان نفسه، تلك الروح، تجد من التضحية لذة وترويحا.

ثم لم يكن الشيخ الفتى يصارع عدوه بساعده وعضله، وإنما كان يصارعه بدينه ومبدئه، فليس هو. في واقعه. جارحة تكل، ولا سيفاً يفل، ولا ضربة تنبو، وإنما هو حقيقة تنصب على زيفها الصباب النور على الظلام يمزقه تمزيقا، ويمحوه محواً.

فأي عجب بعد هذا في أن يصبر كهل على فتنة، أو يثبت على امتحان، مهما غلا هذا أو تلك في قسوة، أو بالغاً فيها؟ وأي عجب بعده في أن تشب شيخوخة هذا الكهل وقد تبين لها

الحق، ووضح له الطريق؟ وما حاجة الكهل والشيخ معاً إلى أجساد الشبان، وعضلات الأحداث مما تنتظره لصبر ممتحن أو إقدام مقدام؟ وما الفتوة؟ هل هي سن ومیعة صبا؟ هل هي مرحلة معينة من مراحل العمر؟ الواقع أنها ليست كذلك، وإنما هي إيمان، يكبر حظك منها كلما كبر حظك منه، هي حماسة إيمان تلبس إهاب الكهول والشيوخ، كما تلبس إهاب الشبان الأحداث، فتنشئ في هؤلاء ما ينشئ الشباب الجلد القوى الصبور، وتحرك منه في هؤلاء وهؤلاء، ماتحرك من عزم ونشاط ونفاذ وحيوية وتوقد ومضاء. وكم يافع منطفئ الجذوة كليل الحد تسقطه الفتوة من حسابها وإن أعجبك منظره، وكم معمر متوهج الجمرة مشبوب الهمة تحتضنه الفتوة الأصيلة، وإن نبا في العين مظهره.

وكانت الفتوة تزيد في صاحبنا على نفسها في غيره زيادة مضاعفة. كان لا يشك هو، ولا يشك معه عدوه ولا صديقه في أن لسيفه ميزة، فإذا أهدت السيوف إلى خصومها ضرباً واحداً من الموت، فإن سيفه يهدى إلى خصمه وخصم صديقه ضربين: أيسرهما فناء الجسد، وأشقهما لعنة الأبد. ثم كانت تضاعف فتوته ميزة أخرى لنفسه كميزة سيفه. كان يعلم هو وعدوه وصديقه لا يجهلان أنه مع الحق سلم أو قتل، وأن خصمه مع الباطل انتصر أو خذل، وأية حماسة ادعى للفتوة من حماسة إيمان تهدى إلى عدوها موتين أحدهما أخزى من الآخر، وتدخر لصديقها حياتين أخراهما أبقى من الأولى؟

كهولة حرة برة بكرت بكهلها على الإسلام، قدمته أحد سبعة سابقين أولين، فنهض بأجسم أعباء الرسالة وأشقها، نهوض جهاد متصل، وتضحية صابرة وكفاح مر.

وشيخوخة لم تقصر عن كهولته حرية ولا برا، قدمت صاحبها طليعة وفاء لروح الإسلام، فكان من الآحاد الأول الناهضين بأعباء الرسالة، نهوض إجهاد متصل، وتضحية صابرة وكفاح مر، فما التقت جبهتا صراع إلا كان (علامة هدى) في إهداهما سبيلا، وأعدلهما قضية.

كان في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم راية للمؤمنين لم يتفقدها الرسول في محنة قط، إلا وجدها رفاقه تقتحم الهول على (الشرك) عنيفة به صامدة لعنفه.

ثم ظل بعد النبي راية للمؤمنين لم يتفقدها روح الرسول في محنه قط إلى وجدها هناك رفافة تقتحم الهول على (الردة) عنيفة بها صامدة لعنفها.

قال المحدث: هذا كله جعل من (عمار) بن ياسر (علامة هدى) يموت من يموت إلى جنبه موقناً أنه غادٍ إلى الجنة، ويهلك من يهلك إلى جنب عدو هو موقناً أنه رائح إلى النار.

وكان (عمار) يقول عن النبي صلى الله علية وآله وسلم: «ثلاث خلال من جمعهن جمع الأيمان كله: الانفاق من الإقتار، والإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم». وكان. ما عاش. هذه الخلال الكريمة نفسها، فما رأيناه بشراً من البشر، ولكن رأيناه الأيمان بخلاله الثلاث هذه، يتحرك بين الناس عطاء وإنصافا وسلاما. هو العطاء والإنصاف والسلام محاربا كان أو مسالما.

حليف مخزوم:

أسمر اللون، عجنت طينته بمسك، مديد القامة ولد من عائلة الرماح، بعيد ما بين منكبيه، صيغ تجسيداً للمهابة، أشهل أصلع، «في مقدم رأسه شعرات، وفي قفاه شعرات» كما قال معاصره القصاص ذو الاداوة.:

«طويل الصمت كأنما تحدثه الملائكة، سديد الرأي لا يخدع عن الصواب، راجح العقل «ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما» كما وصف رسول الله . زكي النفس سخي اليد، هباب للحق، جريء به، لا يلوى فيه، ولا يصرف عنه».

ولد في حي بني مخزوم من (مكة) سنة ٥٧٠م أو نحوها، فقد كان تربا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم . كما يقول هو . لم يكن أحد أقرب إلى النبي سناً منه، أما أمه «فسمية» بنت خياط، وكانت أمة لأبي حذيفة بني مخزوم، ولم تكن في أماء قريش أمه مثلها حرة في ذكاء القلب، وصحة العقل، وملاحة الوجه، وعفة النفس، وطهارة الذيل.

وأما أبوه فياسر بن عامر، عربي عنسى مذحجى قحطانى يمانى. أقبل من اليمن مع أخويه: مالك والحارث، يلتمسان أخا رأبعا لهم كان قذف به قدر من أقدار الحياة الكثيرة المصطلحة يوم ذاك على اليمن تفرق أهلا، وتبعثرهم هنا وهناك، وتنفرهم من وطنهم الذي ألح عليه الجفاف، وابتلاه فساد الحكم بالقحط والمحن، والبطالة ونضوب العيش، فيهاجرون منه أفراداً ويهاجرون منه جماعات بحثاً عن الرزق، وتنقيباً عن العمل.

وكانت مكة مهاجراً تترى إليه الوفود اليمانية منذ تفرقوا أيدى سبأ، أمتها جرهم الثانية، وأمتها خزاعة، وحكمتاها واحدة بعد الأخرى غالبتين على حكمها أهلها من بني إسماعيل، حتى استعاده (قصى) بن كلاب (٤٠٠م)، واستأنفه مضرياً، وأم غير جرهم وخزاعة غير مكة من الحجاز، فعمرت يثرب بالأوس والخزرج، وأم غير هؤلاء وأولئك غير الحجاز من العراق والشام واليمامة ونجد والعروض متنشرين كالجراد يملأون فراغ الجزيرة العظيمة، ويزودون هلالها الخصيب بما حملوه من كثافة، وما نقلوه من ثقافة وأوضاع.

وكانت مكة تمتاز على جميع هذه المهاجر بأنها دار أمن لا يأتيه الخوف من بين يديه ولا من خلفه، وبأنها دار رخاء ولا يدنو إليه الجوع من فوقه ولا من تحته، ففيها بيت اللهو وعليها سدنته الأسماح المطيبون، يبذلون لضيوفها الرفد والكرامة من أنفسهم، ويبسطون العدل في القضاء من حكومتهم، فهم آمنون وادعون، كافلون للأمن والدعة، لا يروّعُون ولا يروّعون.

فلما يئس الإخوان الثلاثة من العثور على فقيدهم في مكة، انحسر عنها مالك والحارث، واستقر فيها (ياسر) حليفاً لضيفه أبي حذيفة سيد مخزوم، يحفظه هذا، ويحفظ هو لهذا يده عنده، ويثبت احسانه إليه، وامتناعه به، بالوفاء له أكرم الوفاء وأصفاه وأخلصه. وكان أبوحذيفة كأخيه (هشام) من قبل وكأخيه (الوليد) من بعد، زعيما سمحا كريما رضيا حافظا للمعروف، مثيبا عليه، وكان حدبا على حليفه العنسى بوجه خاص. رؤوفا به رحيما، يؤثره بحب يضيفه إلى

ما أخذ به نفسه من حلفه، وربما أضاف إلى هذا أو ذاك شيئاً من احترامه لهذا العنسى الغريب الذي اضطراته الأقدار إلى الاعتصام بغير داره، ورمته إلى دار يطلب فيها الحماية من غير أهله، وعسى أن يكون، بل هو قد كان، ذا دار منيعة عزيزة، وذا أهل كرام أشداء، من أجل هذا حالفه أبو حذيفة، ثم أحبه، ثم احترمه، ولم يخيب ياسر ظن حليفه، فوفى له، ثم تصرف بوفائه تصرف العقلاء الأعزاء الذين يلائمون بين أدب الغريب وضعف اللاجئ وبين كرامة النفس واستقلال الرأي، فكان من سلامة سلوكه ومن صفاء معدن حليفه معا أن عرف بعد ذلك مخزوميا له ما للمخزوميين، وعليه ما عليهم. يطوف بأندية (قريش) ما يطوف حبيبا أثيرا محترما، لا يثقل على أحد بتكليف، ولا يستثقل أحد له ظلا.

وفي ذات يوم فكر أبو حذيفة بحليفه العنسى، فرآه مستقيما لا تطيش به نزوات الرجال، ورأى أنه رجل لابد لبيته من مرأة، ورأى أن الحياء والاقلال يحولان بينه وبين ما يطمح إليه كل رجل من زوج تدبر له المنزل، وتكشف عنه وحشة الوحدة، وترزقه خير الأولاد، فزوجه (سمية) بنت خياط أحب أمائه إليه وأحظاهن عنده وأكرم الاماء جوهراً في ذاتها وطهارتها ثم كان من بره بحليفه وقدره الدقيق لمشاعره الحرة تحرير أبنائه من (سمية). لم يسأله ياسر ذلك، ولكنه هو أحس ما بنفس ياسر فرفع عنه بأريحية صناعة إنتاج العبيد والإماء، وكان أفضل (نقوط) عند ياسر حرية بطن سمية التي وقع منها على كنز أي كنز.

أوضاع مكة

درج الصبي عمار ناضج الصبا، خامر الطفولة، يثبت إلى النمو وثوبا، ويسبق الزمن إلى اكتمال الرجولة واستيفاء الذكاء جميعا، وكأن ما بنفسه من طموح أعانه على القفز، وألغى عنه ما يفرض على غيره من حكم الزمن، وانتظار إذنه في الانتقال من مرحلة إلى مرحلة. ومن دور إلى دور، ومن هيأة إلى هيأة.

وشب الصبي الكبير، فهو الآن يقرب من العشرين إن لم يكن بلغها بعد، ذو هدى ووقار وبر بوالديه، ورفق بعشرائه، يعفى الناس من شره، ويعفيه الناس من شرورهم، فهو صامت غاديا، وصامت رائحا، ذاهب في الجو من غدوه ورواحه مطرقاً يرفع نفسه عما يدنس غيره من سادة مكة وعبيدها، وبيضها وأحابيشها ممن أبطرهم الغناء وأفسدهم الرخاء، ومال بهم الطيش إلى سفه ومجون، وتشدق ووقوع في أقوات الناس وأعراضهم.

وحسب الذين تعودوا صمت (عمار) أنه صمت الغريب المستضعف، يسبغه ويضفيه، فيحسن إسباغه وإضفاءه أدب في نفسه، ووداعة في طبعه، ولين في مزاجه، وانصراف عما لايعنيه. أما الذين عاشروه حق المعاشرة وبلوا دخائله حق البلاء، فكانوا يعملون أن لصمته مصدراً آخر أعمق من هذه المصادر كلها، وإن كانت هذه لمصادر حق تؤثر فيه الصمت، وتطبعه عليه. أما المصدر الخطير فكان تفكيراً ملحاً من تفكير حنيف. كما كانوا يقولون. أو وعى حر. كما تعودنا أن نقول اليوم. من وعى الأحرار المفكرين، وكان الوعي في عهده متململا يبرق إلى الواعين، ويخامرهم،

ويؤامرهم، ويحثهم حثاً عنيفاً على إعادة النظر بهذه الوثنية المظلمة، وبهذه العادات الرثة، وبهذه الأنظمة البالية، ولكنهم كانوا يخشون الجهر، ويخافون الظهور، ولا سيما مستضعف كعمار، أكبر حجته في بقائه بمكة حلف أبيه لأبي حذيفة، وكل قوته أنه منسوب إلى هذا الزعيم من مخزوم، فلما أحراه إذ يضطرب وعيه بعيب للآلهة، أو نقد للتقاليد أن يتخلى عنه أبو حذيفة، وما أحراه إذ يتخلى عنه أبو حذيفة أن تمزقه السياط، أو تتقاذفه الغلمان، أو تتخطفه الشياطين، فيذهب من أجل هذا صامتا صمته العميق المفكر، موادعا سادة قريش موادعه أحلافهم وعبيدهم، منتظراً مع هذا وذاك رجفة الزلزال التي يحسها في نفسه، ويحسها في نظرائه، ويحسها في سير الأحداث.

وكان خلال صمته ينتقد بينه وبين نفسه، وربما انتقد بينه وبين أبيه مصير مكة في عهده، وسوء منقلب سادتها أو أكثرهم ممن أسرفوا على مكة وعلى الناس وعلى أنفسهم، فارتدوا جبابرة يوشك أن يبدلوا أمن (البيت) خوفا، ويعيدوا بشاشة الحياة عبوسا، ويردوا رجاء العيش شدة، فهؤلاء سفهاء من أمية وجمح وسهم وعدى، لا تكفيهم أفياؤهم ومرابحهم، ولا تسد شهواتهم القيان ومن استزلهن الشيطان من نساء الحاضرة حتى يسطوا بتجارة الغرباء، ويغلبوا الزائرين على بناتهم، فيبلغوا حاجتهم من الأموال والأعراض بغزو من غزو البادية وأشنع وأشد استهتارا.

قال لأبيه مرة: ويح هؤلاء السفهاء، ألا يتقون شر هذه البدع المنكرة في قدس بلدهم الذي به يحيون، إن لم يتقوها في زكاة أنفسهم، وتقوى ضمائرهم، ألا ينظرون إذا تسامح بشأنهم الناس من حجاج (البيت) ومصر في التجارة، أن يخلعوهم من (البيت) ويزيلوهم من الحكم، أو يقاطعوهم إذا لم يستطيعوا إلى خلعهم وإزالتهم سبيلا، فيميتوهم فقرا ومذلة وهوانا؟ ما رأيت طيشاً كطيش هؤلاء السفهاء! ولا يرى طيش كطيشهم يفسد على صاحبه آلة العيش بله عفة النفس وراحة الضمير!

فقال له ياسر: أراك منذ اليوم تكبر على سنك، وتسمو فوق شأنك أتسوق إلى هذا الحديث من نفسك؟ أم ألقى به اليك ملق أراد بك شراً.

قال عمار: لم يلق إلى بهذا الحديث إلا عيني المبصرة، وأذني السامعة، نقلناه إلى نفسي، ثم لم تنقله نفسي إلى أحد قبلك، ولم تنقله إليك إلا هذه الساعة، وإن كنت لأعلم أن نفراً من الصعاليك أمثالي ليئنون أنينى، ويشكون شكواى. أترى تقرأ أعين الناس وتطيب نفوسهم بما تنكر الأعين والأنفس، من استرقاق الرقيق، واستضعاف الضعيف، وامتصاص الجهود باسم آلهة هي أشد رقا من الرقيق، وأعظم ضعفاً من الضعفاء؟

فقال له أبوه: قد أعلم ما تعلم يا بني، وأوقن بما توقن، وأزيد فاسمى لك نفراًمن العبيد والأحلاف وبعض أبناء البيوت يشوكهم ما يشوكك، ولكن أكتم هذا في نفسك، ولا تجاوزه إلى أحد ممن في هذا الوادي، إن يذع عنك هذا النقد يثر عليك وعلي شراً لا نقدر على دفعه، ولا نقوى على تحمله، وتعلم يابني أن لهذا (البيت) رباً يحميه، ويكشف عنه كل ضر، وأنت لم تكن يوم

(الفيل) فقد كنت رضيعاً، وقد كنت أنا وشهدت يومه فيمن شهده، ورأيت كما رأى الناس عجبا، رأيت سيد قريش: عبد المطلب بن هاشم، يأمر أهل مكة أن يخلوا بين (أبرهة) الحبشي وبين (البيت) ولم يكن له ولا لقريش قبل بلقاء جيشه الجرار المنظم، ورأيته مطمئناً يذيع الطمأنينة في أهل مكة، ويعدهم النصر دون قتال، وكنت يائساً. ولا أكتمك. في مكة مع اليائسين، شاكاً يوعد عبد المطلب مع الشاكين، ولكني رأيت بأم عيني هذه جيش (ابرهة) ممزقاً تمزيق، منكلا به شر تنكيل، فما كاد يوعز الحبشي إلى جيشه بالهجوم حتى غام الجو واضطرب، وأخذه مخاض شديد، ثم أقبلت من مجاهله سحب من طير صغار تحمل في مناقيرها وأرجلها حصى صغارا، ثم ترمي الجيش المعتدي من حصاها بوباء، فلا ترمي إحداهن الحصاة الصغيرة على رجل إلا خرقته ونشرت فيه دائين من حصبة وجدري، وما هي غير ساعة حتى انكشف العدو مقطعاً وانتصر (البيت) موفورا، وجلت الطير مشكورة، ونزلت السماء تغسل بقايا الوباء. ومنذ ذلك اليوم تعلمت أشياء نافعة كثيرة، تعلمت الإيمان برب البيت الذي يعبده عبد المطلب، لا بهؤلاء الأرباب الذين تعبدهم عامة قريش، وتعلمت أن إيمان المؤمن المستضعف أقوى من قوة الظالم المتعجرف. وتعلمت ألا أزيد بانتصاري للحق على طاقتي، ولا أعدو فيه طورى، نازلا عن قيادته لأصحاب القيادة وأكفائها، كما نزل عبد المطلب لربه عن حماية (البيت) فيما أعجزه من حمايته دع هذا الأمر. يابني. لأصحابه، فأنت بالقياس إلى هؤلاء السفهاء أضعف من عبد المطلب بالقياس إلى جيش ابرهة، وبنو عبد المطلب في حرصهم على قداسة (البيت) وأمن بلدهم وقدرتهم على الأخذ بأعراف هؤلاء السفهاء، حيث لا تقاس إلا بأحد غلمانهم، فدع لهم أولو أحد منهم أن يتحدث بهذا الأمر ويفشيه بين الناس، فإنه إن يفعل لا يجد أحد في مكة إليه سبيلا، وعساه إن فعل أن يبلغ من تأديب هؤلاء السفهاء مايرضيك ويرضيني ويرضيه، وسواء أبلغ من تأديبهم الحاجة أم لم يبلغها، فهو من حاليه في حصن من الأذى، وفي قمة من طاعة الناس لأمره، وأصغائهم إلى قوله، أما نحن. يا بني. فليس من الأمر غير الرضوخ والصبر، فإن أبينا سلخوا جلودنا كما تسلخ الشياه، ثم لا ينتطح في محنتنا عنزان، وليتنا اذ نسلخ نبلغ الحاجة من تعميم الخير، وإفشاء العدل، إذن يكون ثمننا مغريا، ولكننا لن نجد إذ نحدث الناس بهذه الأمور غير الاستخفاف والسخرية ولن نجد إذ نضحي غير اللوم والتقريع من جزاء. ألا تعلم يا بني أن التحدث بأمور العامة في نظام كنظامنا الحاضر وقف على الأقوياء من السادة والقادة والأشراف والنبلاء، وأنه محرم علينا نحن الضعفاء من الأرقاء والحلفاء والصعاليك والدهماء. وآخر ما أوصيك به أمران: أن تؤمن برب هذا (البيت) من إله عبد المطلب لا آلهة قومه. وأن تثق بهؤلاء النفر من هاشم، فهي. فيما رأيت وبلوت. أصحاب الخير في هذا الوادي، وعسى أن يكون لهم شأن في شكايتك هذه وهم بالغوه في هذه الأيام.

بهذا تحدثني نفسي حديثاً أستيقنه جملة، وأجهله تفصيلا، وماأدري ما يأخذني من تربك: (الصادق الأمين) كلما رأيته. إن له طلعة لمحتها تضمن بُشر عام وخصبه، وقد كان جده

عبد المطلب يتوسم به أعظم الخير، وينتظر أن يكون له شأن من شؤون السماء.

قال عمار لأبيه: لست أعدو لك رأيا، ولا أخالف لك أمراً، ولكني رأيتك تخضع الهاشميين إلى إله غير آلهة قريش، فما هو هذا الإله؟ وما مكانه؟ وماذا عساه أن يكون؟ ولماذا لا يظهرونه كما يظهر الآخرون آلهتهم.؟

قال ياسر لابنه: أنا لا أعرف إله الهاشميين معرفة كاملة، ولكني أدرت فيهم وفي قومهم ما يمكن أن أدير من عقلي، فوجدت لهؤلاء رأيا جميلا في الله، ورأيا جميلا في الحياة ليس لقومهم مثلها: وليس إله عبد المطلب إلها مصنوعا لا ينصر إلا أن ينصر، ولا يعطى إلا أن يُعطى، بل هو إله صانع ينصر ولا يستنصر، ويعطى ولا يستعطى، ألم تر إلى ما حدثتك به من أمر (ابرهة) وجيشه؟ ألم تر إلى تلك الطير الضئيلة التي لا نعرف مثلها في النسور، وإلى حصواتها الصغار التي لم نعرف مثلها في الصخور، كيف أهلكت جيشاً لم تثبت له اليمن؟ ذلك كله مظهر من مظاهر القدرة في إله عبد المطلب. فأين منه آلهة الناس مما يصنعون من تماثيل ودُمى عمى صم بكم لا تعقل، ولا تدفع عن نفسها شراً أن أردناها بشر، وإله مثل إله عبد المطلب. يابني. خليق أن يكبر على طاقتنا، فإن يخضع إلى تصرفنا كي ننقله أو نحمله أو نعبث به كلما شئنا، كيف شئنا.

قال عمار: لست أعني بإظهاره تجسيده ولا تمثيله، ولانقله من عليائه إلى مصارف هذه الاحجار الصم العمي البكم، فليكن إظهاره بإظهار أمره وإفشاء سره وإعلان قدرته.

قال ياسر: لكل أجل كتاب. يابني. لا يسبقه ولا يتأخر عنه، وكيف يتأتى لعارفي هذا الإله العظيم إظهار أمره قبل تحرير الناس من سيطرة الخرافة، وقيد العادة، وعبادة الذات، وسحر الوهم، وهذه كلها جنود مجندة، ولاتكاد تحس المتحرر حتى تأخذ عليه الافاق، وتسد عليه الطرق، وقد رأيت عبد المطلب برغم ذلك يتأتى الفرصة، ويسعى في مهل إلى خدمة ربه دون أن يحفظ قومه أو يريبهم فيفاجئهم شيئاً فشيئاً بسنن وتنظيمات تعدهم لما يسميه (الحنيفية) من دين جده إبراهيم، ومن حكمته. في تأتيه الفرصة وتحينها. أنه بدأ بنفسه، فاجتنب الخمر على أنها رجس، ولم يحرج قومه بحملها على اجتنابها، مكتفياً بهذه السلبية التي تقبح عادة من عاداتهم، وتسفه حلما من أحلامهم، وتنزل من عقول عقلائهم منزل القدوة، ثم فارقهم في حقيقة دينهم كله بسلبية أخرى دون إكراه، وذهب إلى غار (حراء) يتحنث وينسك معتزلا آلهتم متوجهاً إلى إلهه بصومه وعبادته، مكتفياً أيضاً بسلبية تحقر الأوثان تحقيراً غير مباشر، وتشنع على الوثنية والوثنيين تشنيعاً دوى في صدور الأحناف، ثم تجاوز حقل الدين إلى حقل الحياة بثورة أخرى على شكل آخر، فأهان (أساف ونائلة) إلهي النحر والأضحيات بحفرة عندهما بئر زمزم، وقده تكلف بهذه الثورة بعض الجهد، واحتمل بعض المشقة، ولكنه انتصرو وأعلن من نصره هذا نصرين عظيمين، على الخرافة والتقاليد، انتصر على (أساف ونائلة) باستخفافه بهما، وإعلانه ضعف خطرهما وانتصر على عجز الإنسان باكتشافه ماء زمزم: هذه البئر التي لاتنزف أبدا ولا تذم. ثم كانت له آيات أحدثت في سور القوم المسحور كثيراً من الصدوع، وفتحت به كثيراً من الثغر في

جهاد صادق كان يصرع الأوهام في هذا البلد شيئاً بعد شيء، ويؤلب عليها أهله والأقرب من عشيرته وصديقه، فإذا جاء اليوم الخطير وجد طريقه ممهداً.

قال عمار: ولماذا لم ينصره. يا أبت. ربه نصراً حاسما بآية كطير أبابيل، وما باله يؤتيه النصر شيئاً بعد شيء كالمدين المطول لا تطيب نفسه بالوفاء جملة، فيسدد دينه أقساطا.

قال ياسر: هذه مسألة قد يكون على أقل من الجواب عليها: وقد يكون عند أبي طالب حلها أو بعض حلها، ولكني أظن رب عبد المطلب ربا في قدرته الهائلة غنيا في ذاته، وإنه في قدرته الهائلة رب رؤوف حليم غير ذي انتقام، فهو في غناه الذاتي قادر على الإمهال، نشيط على الصبر، كالدائن السمح يسدى بالإدانة أيادى عدة لا يداً واحدة: يداً في الدين، ويداً في أرباح الدين، ويداً ثالثة في إمهال المدين حتى يدركه يسار النفس ويسار المال، وهو في غناه الذاتي بعد هذا كله حيث لا يضره غى الناس، ولا نفعه رشدهم، فسيان عنده علموا أو جهلوا، وسيان عنده سفهوا أو عقلوا، وسيان عنده شقوا أو سعدوا، لايناله من أحوالهم كلها ربح ولا خسارة، وإنما يريد لهم ما يريد من خير، ويأبى لهم ما يأبى من شر، ثم لا يليق بغناه الذاتي فقر التدخل بأحوالهم على نحو الجبر، لذلك لا يكرههم على الفضيلة إكراها، وإنما يخيرهم، ويخلى بينهم وبين ما يشاؤن من فضيلة أو رذيلة، في أناة من لا يخيفه الفوت، ولا يعجزه الطلب.

وهو من رأفته، بمكان الألوهة، ينظر منه إلى أعدائه نظره إلى أصدقائه، كلهم عباده، كلهم عياله، وكلهم حرى عنده أن يحي ويعيش ويسعد، لا يأتي التفاوت في هذه الأمور من قبله، وإنما يأتي من قبلهم، صدره ليس ضيقا كصدورنا. يابني. حرجا بالحسد، فوارا بالقمة، بل هو صدره الرحب الفسيح الخافق بالحب والرحمة والغفران، فلو قد عجل على الخطئين بالنقمة، وأغلق في وجوه العاصين أبواب التوبة، لم يكن حالذاك إلها، وإنما كان ملكا جباراً تعروه الخطيئة، ثم يجب عليه القصاص، ثم إذا فعل ما تتمناه أنت من معاجلة الناس قل لي: من يبقى من البشر على وجه البسيطة؟ وإذا أخلى البسيطة من الناس، قل: من ذا الذي يعرفه بعدهم؟ وما الفائدة بعد ذلك من الأنظمة والشرائع والقيم؟ بل ماذا يبقى للحياة كلها من الغايات والأغراض والأهداف؟ تعلم. يابني. أن رب عبد المطلب رب لا أطول من أناته، ولا أوسع من رحمته، ولا أغنى من ذاته، لا يكره بل يخير. ولا يعنف بل يلطف، ولا يعجل بل يمهل ولا يعسر بل ييسر، وقلما يظهر من قصاصه، ثم لا يقتص إلا إذا طفح الكيل، وإلا إذا توقفت على القصاص حكمة من حكمه البالغة، أو خيف انقطاع هذا الخيط الضعيف الذي يشد الأرض إلى السماء.

قال عمار لأبيه: لله حرة انكشفت عنك. يا أبتي. إنني لأشرب كلمك هذا كما أشرب الرحيق، فينشر في نشوة سأسأل شاربي الخمر عن دبيبها، يخيل لي. يا أبه. بعد الذي سمعت أنك لست إنسانا، وإنما أنت مَلَكٌ يغرس فيَّ ريشاً من أجنحته، بقيت عندي مسألة لا أحب أن يفوتني علمها.

قال ياسر لابنه: قل وخلاك ذم إن يكن عندي خير فهو لك.

قال عمار: يا أبتي رأيتك تعظم من بني هاشم مالا تعظم من بني مخزوم، وقد أعلم أن بني هاشم أرفع مكانة، وأعز نفرا، ولكن مخزوما حلفاؤك، وذووا الفضل عندك، أليس من الوفاء لهم أن تحبس عليهم ميلك.

فقال له أبوه: وصلتك رحم يابني. أنا إنما أعظم الحق بمعزل عن هاشم ومخزوم، ولو حدثتك بحديث القلب والعاطفة لكنت جديراً بالميل إلى أحلافي كما زعمت، ولكني أعلم أن ميلي العصبي ككل عصبي، لا يغني عن الحق شيئاً، ولا يغير منه شيئاً، وقد رأيت يعيني رأسي وعيني يقيني. وهن أربع. أن الفرق بين هاشم وبين عامة قريش، وأفضلهم مخزوم، كالفرق بين إله هاشم وبين آلهة قريش. أولئك أرواح برة نشيطة عاملة مدركة، وهؤلاء تماثيل جامدة ثقيلة بغيضة فإذا تحركت لم تأت بخير.

خذ الحق. يابني. حتى من نفسك، فورب عبد المطلب لو فارقتني أنت فيه لفارقتك، ولكان أعظم بري بك وحبي إياك أن أدخلك عليه، أو أدخله عليك ما استطعت، فإن لم أستطع كان أعظم حبي إياك وبري بك أن أرثي لحالك من بعيد هذا قياس وفائي لمخزوم: أهبها قلبي وأمنع عنها عقلي إلا في الحق فإن خالفت الحق رجوت لها أن تعرفه، وهذا أعظم الوفاء.

وبلغا من حوارهما هذا الحد.

قال المحدث: وكان حوارهما هذا من حديثهما الصباحي، وكان صباح (مكة) صباحاً قرشياً مترفاً، تحتشد فيه الأندية، ويطيب فيه الحديث، وكان ياسر يتخلف عن نادي بن مخزوم أحيانا ليجلس إلى ابنه يجاذبه كلاما هو أشبه بالدرس منه بالعبث والمفاكهة اللذين تصرف بهما قريش السأم عن الوقت، وكان لياسر من ملاحظته وعقله وتجربته وحكمته اليمانية ما يؤهله أن يقع من ابنه موقع المعلم من التلميذ.

قال المحدث: وقطع عليهما حوارهما ذلك الصباح هتاف هبط عليهما من (أبي قبيس) كما هبط على غيرهما، وعلى غير بيتما، من متحدثة (مكة) وأنديتها، وقطع من الأحاديث كلها ما قطع من حوارهما ذاك، وأنصتا فاذا الهتاف يهبط من (أبي قبيس) نقياً صافيا حاراً مشيراً ببعث الروع والروعة جميعاً، وتابعاه بكل حسهما، وبما اقشعر من بدنيهما، فإذا هو يردد هذه الأبيات في نقاء وصفاء وحرارة وإثارة:

يا للرجال لمظلوم بضاعته ... ببطن مكة نائي الحي والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته ... ياأهل (فهر) وبين الحجْر والحَجر
هل منصف من بني (سهم) فمرتجع ... ما غيبوا؟ أم ضلال مال معتمر

قل عمار: أرأيت. يا أبتي. إلى ما حدثتك عنه من سفه هؤلاء؟ لقد بلغت الشكوى منهم رؤوس الجبال.

فقال ياسر: ماشككت. يابني. أن طفولتك تنفتح عن شباب رشيد، ولكن احفظ عني ما أمرتك به صدر حديثي آنفا، وانهض الآن فاقتص لنا أثر هذا الخبر، ما خطب هذا

الهاتف يصابح (مكة) بهذه الشكوى المرة؟ وما عسى (مكة) أن ترد على هذا المظلوم من مظلمته الصارخة؟

ولما عاد ياسر قال لأبيه: لم يخطئ علمك ببني هاشم من صلاحهم شيئاً كان الهاتف رجلا من (زبيد) أقبل إلى الحاضرة ببضاعة ثمينة ابتاعها منه أبو عمرو العاص بن وائل السهمي، فآواها إلى بيته ولما يدفع ثمنها لأخي زبيد، ثم غيب وجهه، ويطلبه الزبيدي فيعجزه الطلب، ويبتغي متاعه فيمتنع عليه المتاع، ويلتمس بني سهم يشكو اليهم أخاهم فلا يجد وجوها، بل يجد أقفية، ويبلى في طلب حقه بلاء حسنا، فيطوف على أندية قريش من ظهراء (سهم) فلا يجد غير اعتصاب على الاغتصاب، وغير ممالأة على الغزو المجرم، وغير عفو من الجميع عن العاص يشتري منه عفواً عن مثلها يأتيها حرب بن أمية، وأبى بن خلف وغيرهما من فُتاك مكة وعصابتها. وانتهى الأمر إلى (أبي قبيس) يشكو أمره إلى قريش مجتمعة، بعد أن شكا إلى أكثرها متفرقة، راجياً أن يكون لشكواه المعلنة شأن وتأثير، ويرسله. كما سمعنا. صوتا يهوى من العلياء كما ينزل الصوت من السماء.

قال عمار متابعاً: ولقد جهدت أن أحس وقع هذا الصوت العادل، وأرى إلى أثره المرجو في هذا الحرم من وطن السلام، فلم أجد غير قفر يبسط ظله الصحراوي على كل مكان إلا واحة تنشز فتهتز للنداء اهتزاز نجدة وأريحية وإيمان.

قال ياسر: لعلك انقلبت عن نادي الزبير بن عبد المطلب؟

فقال عمار: ما أعلمك بهؤلاء النفريا أبته؟ وقد تركته يتحرك في اتجاه حلف يضع حداً لهذه المهازل، لكأنك تنظر إليه بما حدثتني عن رجل الانقلاب وصاحب الساعة.

قال ياسر: ماظننته هو بالذات، وما أظنه صاحب الساعة التي أعني، وإن كان لمن معدانها وأسبابها. ومالك تعجل ولكل أجل كتاب؟

قلا المحدث: وولع الصبي بعد ذلك ولوعه الهائم بالعدل، وأولعه العدل بالهاشميين ذلك الولوع الهائم أيضاً. وكان بكر اهتماماته اهتمامه بنتائج صفقه الزبيدي غدا على أبيه مرة عادياً، وقص عليه قبل أن يلفظ أنفاسه النبأ التالي:

أثمر مسعى الزبير بن عبد المطلب، فاجتمع له مؤتمر عقده في دار عبد الله بن جدعان التيمي، وألفه من بني هاشم وبني أسد وبني زهرة وبني تيم، وحضر معهم تربى (الصادق الأمين) فتماسحوا بأكفهم، وتحالفوا ليكونن مع المظلوم حتى يؤدوا له حقه، ما بل بحر صوفة، فلا يظلم بمكة غريب ولا قريب، ولا حر ولا عبد إلا كانوا معه حتى يردوا له مظلمته من أنفسهم ومن غيرهم، وتحالفوا على التأسى في المعاش، والتساهم بالمال أيضاً. وقد أسمى الزبير حزبه هذا (حلف الفضول). وكانت أولى ثمراته انقاذ حق الزبيدي من فرعون بني سهم.

وأقبل على أبيه ذات يوم يقص عليه: دخل السوق تاجر من بني بارق فباع بضاعته من أبى خلف الجمحي، وهو. كما تعلم. مطول سيء المخالطة، فاضطر البارقى لرفع أمره إلى حلف

الفضول، ويقول له الزبير: أخبر أبيا أنك أبلغتنا شكواك ثم عد إلينا إذا لم تخرج إليك حقك. فأتاه فأخبره فأخرج إليه حقه.

وقص عليه مرة فقال: قدم خثعمي إلى مكة تاجراً، ومعه بنت ايمها (الفتول) وهي أوضأ فتاة، وأصبح نساء العالمين، ويراها نبيه بن الحجاج السهمي فيرى منها ما يبهره، ويطير نفسه حولها فيؤالى أن يطبق عليها وينزعها من يد أبيها. ويقتحم عليها وجه أبيها وصدره، ثم يتركه بعدها خزيان أسفا، يقلب في أثرها طرف خاسر حائر خائر، ويقال له. وهو سادر: عليك بحلف الفضول، وكأنما أدركه الفرج، فينشط ويعود من حلف الفضول ومعه رسل الزبير إلى نبيه يأمرونه بإخراج الفتاة إلى أبيها، فيناشدهم نبيه أن يمتعوه بها سواد ليلة، فيقولون له: قبحك الله ما أجهلك! والله ولا شخب لقحة. أخرجها وإلا. فيخرجها صاغراً، وتخرج مكرمة.

ويقول ياسر لابنه: كان عبد المطلب قبل (الفضول) وكانت رسله تحل هذه المشكلات، أغرى حرب بني أمية أحد رجاله باغتيال ثرى مستضعف، واغتيل المسكين فاحتار حرب تركته، ورفعت القضية إلى عبد المطلب، فأعاد سيد قريش التركة إلى الورثة، وغرم حرباً دية القتيل مائة ناقة.

ثم تمر الأيام آخذاً برقاب بعض، وعمار يغدو على أبيه من أطرافها ويمسى بخبر من هذه الأخبار، وبفكرة من هذه الفكر، لا يمل هو، ولا يمل أبوه، لعل أباه أعرف منه بهذه الأخبار وهذه الأفكار، ولكنه يصغى إليه إصغاء المشجع، ويعلق على أخباره تعليق المربى، وكان بعد كل إصغاء، وبعد كل تعليق يأمره بالتحفظ، ويوصيه أن يحفظ ما يأمره به، وكان الصبي يختم كل قصة وكل فكرة بقوله: لله أبوك يا أبتي. لم يخطئ علمك ببني هاشم من صلاحهم شيئاً؟

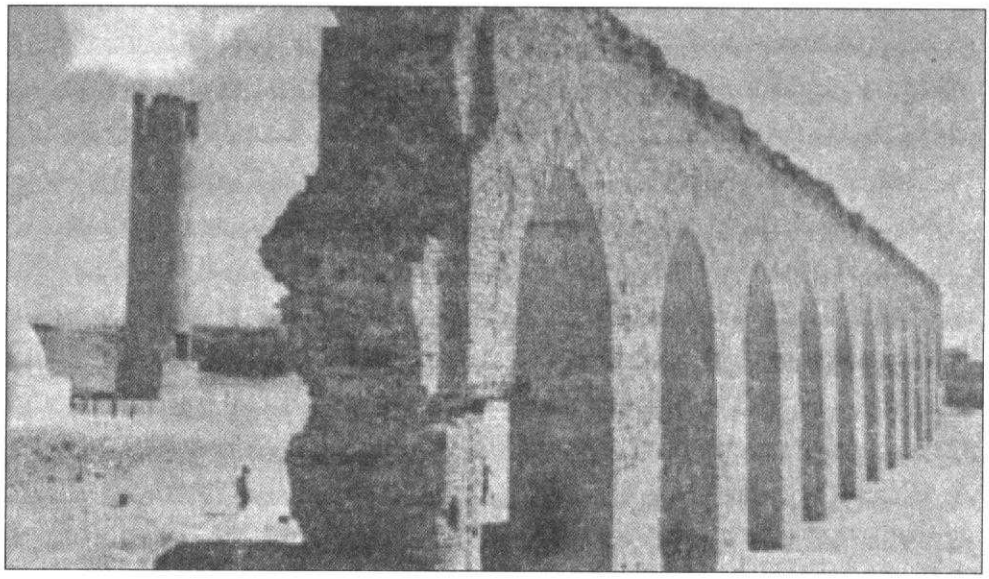

سور الرقة الأثري